

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

زكى نجيب محمود ، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ... هذا اللقب أو هذا التعريف ، الذى اخترناه عنواناً ، لرحلتنا مع العالم الجليل ، فى ساحة الفلسفة والفكر والفن والأدب ، ليس من عندنا ، وإنما هو لقب ، أطلقه شيخنا العملاق عباس محمود العقاد ، على زكى نجيب محمود ، فى إحدى المناسبات ، وكانت له دلالة ووقعه علينا جميعاً ، فمتى وكيف كان ذلك ؟ ولماذا استعرنا هذا اللقب عنواناً لكتاب عن أستاذنا الجليل ؟

فى رأى أن من الأوفق ، أن نترك ذلك لزكى نجيب محمود نفسه ، لأنه أكثر دقة ، وأوضح بياناً ، من أن يحاول أحد الكشف عن هذه الحقيقة الهامة فى حياته ، وسيرته العلمية والذاتية .

يقول زكى نجيب محمود^(١) « عرفتُ العقاد وأنا طالب فى المرحلة الجامعية ، كان ذلك عام ١٩٢٤م ، وكنتُ فى العشرين بينما كان هو فى الأربعين ، لكنه كان يملأ الآفاق الثقافية حضوراً لا تُغضى عنه عين ولا تستطيع ، ولا تصمّ من دونه أذنٌ وهيئات » ، وكان يذكرنا بالمتنبى ، وقول المتنبى ، عن نفسه ، وعن العقاد وأمثال العقاد :

(١) زكى نجيب محمود : مع الشعراء ٣٥ - ٥٠ القاهرة ١٩٧٧ م .

أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أدبى وأسمعتُ كلماتى مَنْ به صَمَمُ
أنا ملءٌ جُفونى عن شواردها وَيَسْهَرُ القومُ جَرَّأها وَيَخْتَصِمُ

أما كيف التقى زكى نجيب بالعقاد ، فإننا نسمع قصة اللقاء
من صاحبها ، حين يقول فيما يقول^(١) : « فى عام ١٩٢٤ ، قرأت
له مقالاً فى صحيفة البلاغ ، كان موضوعها : « الكمال » وقد
ختمه بقوله » :

[« ... والخلاصة أن الكمال لا يتحقق له وجودٌ إلا فى الأذهان ،
وأن مهمة هذه الفكرة ، إذا ما ارتسمت فى أذهان الناس صورتها ،
هى أن تهديهم فى طريق السير ، حتى لا يضلوا السبيل »] .

« وفُجعت ، نعم فُجعت وأحسست بخيبة رجائى وأحلامى ، فقد
كنتُ شاباً شاطحاً فى سباحات الوهم ، أخلط بين الفكرة وتطبيقها ،
وكنتُ أحسب فيما أحسب ، أن ما يدركه العقل من معانى التسامى ،
جديرٌ ، أن تُخرجه الإرادة الثائرة ، من عالم الأذهان إلى عالم الواقع » ،
وفكرتُ فى لقائه ، وفى صحيفة البلاغ بالذات ، لأسأله وأناقشه فى
هذه القضية ، ورغم شجاعتى فقد أحسست بخوف شديد من هذا
اللقاء ، وتوقعت أن يُصينى الاضطراب ، ولكنى جمعت شجاعتى ،
وسعيت فى أمر لقائه الرهيب .

ووصلت إلى دار البلاغ ، فى صباح يوم دافئ من أيام الشتاء
المشمسة ، وحين سألتُ عن مكان مكتبه ، دلّونى عليه ، وقصدتُ

(١) المصدر السابق .

إلى غرفته ، فإذا هي مفتوحةٌ على مصراعَيْها ، ليس فيها إلا منضدة بسيطة جداً ، عبارةٌ عن مُسَطَّحٍ خشبيٍّ ، على قوائمٍ أربعة ، وإليها جلس العملاق الكبير على مقعد بسيط « مديد الجذع ، مديد الساقين ، ذراعاه مبسوطتان ، وليس أمامه ورقة ولا إلى جواره كتاب » ، الغرفة عارية الأرض ، عارية الجدران ، خلوّ من الأثاث ؛ فهأنذا وأنا أتعثر بخطأى عند بابها ، لا أرى إلا هذا الرجل وحده ... « هذا إذن العقاد !! » ...

ويمضى زكى نجيب محمود فى متابعته للعقاد إنساناً ، بعد أن عرفه كاتباً ، فيجد فيه الصلابة فى الخلق ، والمتانة فى بناء الشخصية ، والجدّ فى تناول الأمور ، وهو هو فى كتابته وفى حوارهِ وفى سلوكه على السواء ، الأنفة والشموخ والارتفاع عن الصغائر ، (إنه الرجل الذى إذا لم يكن له ما يريد ، أبى أن يريد ما يكون)^(١) هكذا عرفت العقاد الكاتب والشاعر والمفكر والعقاد الإنسان على حدّ سواء ...

وحين ينطلق زكى نجيب إلى دراساته العليا فى إنجلترا متخصصاً فى الدراسات الفلسفية (العلمية والمنطقية) تطلب منه جامعة لندن أن يشارك فى برنامج شهير هناك يذاع عن طريق شبكة الجبهة العالية ، تحت عنوان : العالم العربى اليوم ، يقدم زكى نجيب محمود ، موضوع العقاد الشاعر ، ثم مختارات من ملحمة الشيطان للعقاد ، مترجمة ترجمة رفيعة ، كانت نتيجة تقديمها ، أن « شقَّ

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

هذا الشعر العربي المترجم طريقه بغير جلبه ولا عناء ، إلى صدر
المجلات الأدبية في إنجلترا أولاً ثم في أمريكا ، فكان شاهداً على ،
ولمن شاء أن يشهد ، أننا مع العقاد ، بإزاء شاعر عظيم ، يحتفظ
بقيمته في الترجمة أمام أعين النقاد .. «^(١) ، ويعود زكى نجيب
محمود ، من بعثته أستاذاً في الجامعة ، لكنه يجد في مصاحبة
العقاد ، حياة فكرية متجددة بالعطاء ، في صالون الجمعة ، أو في
عضويته ببلجنة الشعر والفن بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ،
مع العقاد الذى كان مقرراً الرائد الحاكم البصير . الذى يعيننا من
هذه الرواية بلسان زكى نجيب محمود أن العقاد ، كان لا يصغى
طويلاً إلى حجاج أو معارضة أحد في آرائه ، إلا مع زكى نجيب
محمود ، الذى صدق فى قوله : « وكنتُ من القليلين الذين يحتاجونه
(فى كثير من أمور الفكر والفن والأدب) ، لأن العقاد لم يكن
يصبر طويلاً على المحاجة ، لكنى كنت أشعر أنه [رحمه الله] يطيل
الصبر معى ليقينهِ فى صدق طويتي وسلامة مقصدي ... »

ومن هنا أكرمه العقاد ، بهذه الثقة العظيمة ، فى حوارهِ أو اختلافهِ
معه فى الرأى ، ثم كان أن يقول عنه وأن يلقبهُ بهذا اللقب : فيلسوف
الأدباء وأديب الفلاسفة ، ذلك اللقب أو التعريف الذى سجّله فى
إهدائه ديوانه الشهير الأخير [ديوان من دواوين] لزكى نجيب محمود
فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة .. ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أقول :

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .

إنني تذكرت هذا ، عندما فكّرت في كتابة عمل عن زكي نجيب محمود ، بعد ما توقفت طويلاً - قبل وبعد - أمام هذا التعريف من العقاد لزكي نجيب محمود ، وبعد أن عدتُ لمراجعاتي ودراساتي لكتبه كلها حتى كتابه الأخير حصاد السنين .

وبرزتُ أمامي هذه العبارات الدقيقة لزكي نجيب محمود : « ولقد حباني الله ميولاً فطريةً تعدّدتُ ، حتى وسعت منطقة التفكير الفلسفي ، وقابلية التذوق للأدب والفن معاً ، وهو تذوقٌ قد يعقبه أنا بعد أن ، محاولات النقد القائم على التحليل والتعليل ... ومن هنا ، ترابطت في مخيلتي الفلسفة والأدب والفن في رقعة واحدة »^(١) عندها ، تأكد لي أن العقاد كان نافذ البصيرة حين أطلق على زكي نجيب محمود ، لقباً تعريفياً في أربع كلمات : [فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة] ومضيت لأكشف عن شخصية زكي نجيب محمود ، عبر إبداعاته التي تعتر بها الساحة الرحيبة ، في حقول الفكر والفلسفة والعلم والفن والأدب ، موضّحاً منهجه في موقفه النقديّ ، ومذهبه الفلسفي ، لأؤكد في النهاية ، أن هذا المنهج ، وهذا الموقف ، وهذا المذهب ، متواصلٌ معاً وجميعاً ، في وحدة متناسقة متكاملة ؛ كان هو خلاصة النتائج ، التي ترتبتُ على عقلانية مذهبه في الفلسفة بوجه عام ، وفي الفلسفة العلمية المنطقية بوجه خاص .

وهذه الدراسة تشمل باين ، الأول ، عن فيلسوف الأدباء في ساحة الأدب والفن ، أما الثاني فهو عن أديب الفلاسفة في ساحة الفلسفة العلمية والفكرية .

ولا أطيل في مقدمتي هذه ، حتى لا أكرر ما أفضتُ في عرضه
تحليلاً وتعليلاً ، راجياً من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل عملي هذا ،
إضافة طيبة ، يمكنها أن تفتح نوافذ جديدة في حقلنا الثقافي الرحيب
والحمد لله أولاً وآخراً ودائماً ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

٢٨ من ذى القعدة سنة ١٤١٣هـ

د. عبد القادر محمود

الموافق ١٩٩٣/٥/٢٠م